

حديثي

هذا مع الذين آمنوا ليزدادوا إيماناً ومع الذين ارتابوا ليستأصلوا
الريب من نفوسهم ، ويثوبوا إلى رحاب أهل الإيمان والاطمئنان ،
الذين يسعدهم أن يأوي إلى رحابهم أهل الفكر الرشيد ، والعقل السديد ، الذين إذا
ذُكِّروا ذكروا ، وإذا أرشِدُوا أرشدُوا .

ينظر المتأمل فيرى أمامه هذا الكون الفسيح بجماله وجلاله ، يرى من فوقه
قبة زرقاء مزدانة نهائياً بالشمس ترسل أشعتها على الغبراء ، فتشع عنها ظلام الليل ،
وتلبسها حلة من النور والجمال ، وتبعث الدفء في أرجائها ، والحياة في جنباتها .

ويرى تلك القبة الزرقاء ليلاً ، مزدانة بمصابيح نيرات ، تهدي الساري إذا سرى ،
وترشد قائد السفينة إلى الجهة التي يريد توجيهها إليها ، ويرى بين تلك المصابيح مصباحاً أقوى
إضاءة منها لأهل الأرض ، يتسم بالروعة والجمال يبدو أولاً دقيقاً ، ثم يتكامل ليلة بعد

أخرى حتى يصير بداراً ، ثم يتناقص شيئاً فشيئاً ، حتى يعود كالعرجون القديم كما بدأ ، وهكذا كل شهر بطريقة لا خلل فيها ولا اضطراب مما يحير العقول والألباب .



الكواكب إلى جانب ذلك وظائف في الكون ، عرف بعضها العلماء المفكرون ، وجهل ما لا يحصى منها الباحثون المحققون .

ولهذه

• ويرى من تحته سهولاً جرداء ، إذا وضع فيها الحب وأصابها الماء ، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج طعاماً للآكلين ، وفاكهة للمتفكهين ، وزينة لأهل الأذواق الرفيعة ، وراحة للنفوس المكدودة . ويرى من حوله جبالات شامخة أرسيت بها الأرض حتى لا تميد بالناس واتخذت منها القصور والحصون ، ورصفت بها الطرق ، ولها منافع وراء ذلك تفوت الحصر .

• ويرى اليابس من الأرض ينتهي إلى بحار بعيدة المدى ، رهيبة جليلة المنظر ، تموج فيها أمواج تلو أمواج ما بين رقيقة هينة ، وعاتية عنيفة ، وعلى ضفافها نسيم عليل ، وهواء بليل ، يلطف حرارة الجو ، ويريح النفوس المكدودة ، وينظم الأنفاس المضطربة ، وتجري فيها عجائب الأسماك جماعات وأفراداً ما بين صغار وكبار ، وهادئة ومفترسة ، لها ألوان مختلفات تسر الناظرين وتبهج المتأملين وهذه وتلك كل يسعى إلى رزقه بغرائز مودعة في أعصابها تجذبها إلى مراعي بعيدة المدى ، لم يسبق لها رؤيتها ، ولم تسع من قبل إليها ، تحيا إن بقيت في الماء ، وتموت إن خرجت إلى الفضاء ، بعكس سائر الحيوان ، إذ يحيا باستنشاق الهواء ، ويموت إذا غمر في الماء ، « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »

• ويرى الحر حين يحمي عليه وطيسه ، ويشد أواره ، ويجعله يتصبب عرقاً ، ويجتهد نصباً فإذا رحمة حانية ، تأتيه من الغيب ، فتبعث إليه نسيماً عليلاً ، وهواء لطيفاً ، يخفف عرقه ، ويريح أنفاسه .



يرى

هذا وغير هذا من العجائب المتقنة ذات الجلال الرائع ، فيقول لنفسه ، من الذي أوجد هذا الكون وأبدعه ، وجعل أجزاءه مترابطة ، ومصالحه متعاونة متماسكة ، وأحاط بكل شيء علماً ، وأحكمه تدبيراً ، لا يغفل عن شيء ولا ينام ، ولا تفوته ذرة في هذا الملكوت فكل ما فيه تحت رعايته ورحمته ، مشمول برعايته وعظيم تدبيره .

ثم نقول له نفسه : لماذا لا يكون هذا الكون قد وجد بنفسه بلا موجود يوجده ، ومدير يديره ولا يلبث أن يجد صوتاً من الأعماق يناديه : قد أخطأت التقدير ، وجاوزت المعقول ، أليست هذه صنعة ، وكل صنعة لا بد لها من صانع ؟ : أليست شيئاً حادثاً ، وكل حادث لا بد له من محدث ؟ فكيف يحدث الشيء نفسه ؟ هل رأيت قصراً أو حصناً أو مصنعاً أو أداة صنعت نفسها ؟ فإذا قلت كلا : فالجواب إن هذا الكون لم يصنع نفسه ، بل صنعه وأوجده موجود عظيم .

• ثم يكرر هذا الصوت نداه من الأعماق ، ويزيد في إرشاده إلى الحق فيقول : إن الوجود والعدم أمران متساويان ، فلا يمكن أن يرجح الوجود على العدم بدون مرجح ، فهل رأيت كفتي ميزان رجحت إحداهما على الأخرى بدون ما يرجحها ويثقلها ، فإذا قلت كلا ، فالجواب: أن هذا الكون لا يمكن أن يرجح وجوده على عدمه السابق ، إلا بموجد اختار إحداه على إبقائه في حالة العدم .

وإذا قلت لك أن الوجود والعدم أمران متساويان ، فذلك من باب التساهل معك ، وإلا فالحقيقة أن العدم أرجح من الوجود لسبقه إياه ، فترجح الوجود عليه لا يكون إلا بقدره قادر ، ومشية حكيم .

وإذا كانت منزلة الصانع من العلم والحكمة على مقدار صناعته ، فصانع هذا الكون ومبدعه لا بد أن قدرته وعلمه وتديره لا غاية لعظمتها ، وأنه على كل شيء قدير .

• فماذا رأيت أيها المتأمل بعد هذا العلم ؟ ستقول إن كنت من المؤمنين : لقد ازدادت به إيماناً على إيمان ، وستقول إن كنت مرتاباً : لقد كشف عن نفسي غطاؤها ، وأصبحت موقناً بخالق هذا الكون ، أما إن كنت سادراً في غيك ، متأثراً بإضلال غيرك ، فلم ترفع لذلك رأساً ، ولم تحرك لتلك الآيات فكراً ، ولم تتأثر بها سمعاً ولا قلباً ولا بصرأ ، فإننا نقول لك : « إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ^(١) .

يقول هذا المفكر المتأمل :

اتضح عندي تماماً أن لهذا الكون خالقاً عظيماً ، ثم إن الإسلام يطالب الناس بالإيمان بأن الخالق العظيم واحد لا شريك له ، ولكننا نرى الصنعة العظيمة تحتاج إلى عدد من المهندسين والعمال لكي يحولوها من فكرة إلى واقع ، وإزاء هذا أريد أن أظفر بدليل يريح نفسي ومنطق واضح

(١) الآية الكريمة من سورة الحج : ٤٦ .

يهديني إلى ما يدعو إليه الدين الإسلامي من أن الخالق واحد أحد فرد صمد .

ثم يسكت هذا المفكر هنيهة يسمع بعدها صوت مناد عابر ، الحق يناديه من الأعماق قائلاً : يا صاحبي ليس شأن الكون كشأن سائر المنشآت ، وليس شأن خالقه كشأن المهندسين والمخترعين ، إن هذا الكون مرتبط بعضه ببعض برباط عجيب ، ومتماسك بقوانين مشتركة فلا يستطيع أن يوجد إلا إله يعلم كل شيء ، ويقدر على كل شيء ، ولا يصح عقلاً أن يشاركه أحد في خلقه ، ولو كان معه إله آخر لفسد وتصدع وتهاوى ، « فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ »^(١) .

• إن المهندس يعجز عن تحقيق اختراعه بدون من يعاونه ، لأن قدرته محدودة ، وعلمه محدود ، أما الخالق فلا غاية لقدرة ، ولا منتهى لعلمه « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(٢) إنه تعالى « قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً »^(٣) ومن كان كذلك لا يحتاج إلى خالق آخر يشاركه في إبداعه ولا إلى عمال يساعدونه في إبراز مراده ، حتى يخرج من عالم المشيئة إلى عالم الوجود ، وينتقل من عالم الممكن إلى عالم الوجود .

• فيقول هذا المفكر لضميره : نحن نسمع أن للخالق ملائكة ، فما شأنهم مع الله ، وقد قلت : إنه تعالى ليس له شريك ولا معين .

فيقول منادى الإيمان : إن هؤلاء الملائكة من خلق الله وإبداعه ، وعهد إليهم بما كلفهم به من التكليف في أرضه وسمائه وقد فعل ذلك بحكم ربوبيته لهم ، وعبوديتهم لجلاله وعظمته ، وشأنهم في ذلك كشأن الناس ، خلقهم وعهد إليهم بمختلف مصالحهم ومنافعهم والعناية بالحيوانات التي أخضعها لسلطانهم ، وعمارة الأرض التي يعيشون عليها ، وزراعة وديانها ووهادها ، ليعيشوا هم وحيواناتهم على حاصلاتها ، وأقدرهم على استخراج المعادن من جوفها ، والانتفاع بما في البحار من أرزاقها وخيراتها .

فإذا كان بنو الإنسان ليست لهم قدرة ذاتية حتى يقال إنهم يعينون الخالق بها على ما نيط بهم ، بل هم يستمدون قدرتهم ممن خلقهم ، فكذلك الملائكة ليست لهم قدرة ذاتية حتى يقال إنهم يعينون الله فيما نيط بهم ، وإذا كان بنو الإنسان لا يعملون فيما هو من خلقهم ، ولا يرسلون ماء السماء على أرضهم ، ولا ينتون النبات الذي بذروا حبه في الأرض ، بل الذي أنبته هو خالقهم فكذلك الملائكة لا يعملون إلا فيما خلقه الله ، ولا يقدرّون على شيء إلا بإقدار الله ، فهو الذي يعينهم ، أما هم فلا يعينونه .

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الملك آية : ٣ ، ٤

(٢) الآية الكريمة من سورة يس آية : ٨٢

(٣) الآية الكريمة من سورة الطلاق آية : ١٢

وما خلق

السموات والأرض والإنسان والملائكة إلا مظهر لصفة الجبروت والسلطان لله والقدرة والرحمة من الله ، ولكي يعبد العابدون ، ويثاب المحسنون ويعاقب المسيئون ، وكيف تتوهم يا صاحبي أن الملائكة يعاونون الله ، وقد خلق الله هذا الملكوت قبل أن يخلقهم ، إنهم خلقوا لعبادة الله وطاعته ، فهم كما قال الله (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)^(١) وشأنهم في ذلك شأن الجن والإنس في قوله تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)^(٢) « وإن من عبادة الملائكة لله تنفيذهم لما كلفهم به في ملكه ، وإن ما يسند إلى الملائكة من أعمال كونية ، ليس لحاجة الله إلى مساعدتهم ومعاونتهم ، بل لأن ذلك من جمال التنظيم الذي أجرى ملكه على نسقه » « ويجري على هذا النسق إقامة الملوك والرؤساء ليحكموا رعاياهم ويعمروا ممالكهم ، وإلهام جماعات الحيوانات المختلفة أن تختار من بينها رئيساً لتنظيم شئونها ، كما هو واضح في جماعات الطيور الراحلة من قطر إلى قطر ، وفي جماعات النحل والنمل وغير ذلك وصدق الله إذ يقول : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)^(٣).

فالكون يا صاحبي مسلسل الطبقات ، ولكل حي فيه وظيفة ، سواء أكانت وظيفة عليا أم دنيا ، وبذلك تم النظام في الكون على أسلوب الجمال والجلال والتنسيق ، وحتى بدا في أبدع نظام وأحكم إتقان .

قال

المفكر لضميره الذي يلهمه : إنك تكلمت على عدم احتياج الخالق إلى عمال يساعدهونه وذكرت أن الملائكة لا يعملون في ملك الله معاونة له ، بل امتثالاً لأمره واكتساباً لمرضاته ومظهراً من مظاهر الجمال والنظام في ملكوته ، بدليل أنه خلق الكون قبل أن يخلقهم ، ولكنك لم تذكر الدليل العقلي على أنه ليس له شركاء يشركون معه في الخلق والتدبير والألوهية . قال ضميره : أيها

(١) الآية الكريمة من سورة التحريم آية : ٦

(٢) الآيات الكريمة من سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

(٣) الآية الكريمة من سورة الأنعام : ٣٨

السائل المستفيد : إن الخالق سبحانه كما لم يحتج إلى عمال يساعدونه ، فهو بغير حاجة إلى شريك أو شركاء يخلقون معه الكون ويدبرونه ، لأن قدرته ومشيته ، وعلمه وحكمته ، لا يخرج عن دائرتها أي ممكن من الممكنات ، ومن كان كذلك فهو بغير حاجة إلى شريك في هذا الملكوت ، فلا يصح فرض وجوده حتى لا يكون إلهاً وخالقاً عاطلاً ليس له عمل ، لعدم الحاجة إليه ، فضلاً عن أنه لو كان له شريك لفسد الكون ، كما قال تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) ^(١) ولتوضيح ذلك نقول : لا يخلو أمر هؤلاء الآلهة من أن يكونوا مؤتلفين أو مختلفين ، فإن فرض أنهم مؤتلفون ، وأن لكل واحد منهم قدرة وعلماً وتديراً ومشية تماثل الآخرين - كما يقول بعض أهل الكتاب - وأن كل واحد منهم قادر على خلق الكون وتديره وحده ، فأى حاجة إلى تعددهم مع كفاية واحد منهم لذلك ، إن العقل يجزم بأن تعددهم حينئذ عبث ، والعبث على الإله الخالق محال ، فوجب أن يكون الإله واحداً .

■ وإن فرض أن كل واحد منهم قادر على خلق بعض هذا الكون ، ولكنه عاجز عن خلق باقي أجزائه ، فلماذا تعددوا ليتعاونوا على خلقه كله ، ومثل ذلك كمثل مهندسين يقومون بإنشاء مصنع ، أحدهم يقوم بالبناء وما يتصل به ، وثنائهم يقوم بإنشاء آلاته وتركيبها ، وثالثهم يقوم بعمل الكهرباء ، وبهذا يتم المصنع ، ويؤدي ما أنشئ من أجله .

■ والجواب على هذا أن إبداع الكون ليس كإنشاء المصنع ، حتى يقاس عليه ، فالبناء في المصنع قائم بذاته ، وآلاته قائمة بذاتها ، وكذلك الكهرباء ، ولذا يمكن أن يقام المصنع في أرض دون بناء حوله ، وكل من البناء والكهرباء يستعمل في غير المصنع ، أما الكون فمرتبط ببعضه ببعض ، لا يستغني جزء فيه عن غيره ، ولذا تجد العناصر فيه واحدة في أرضه وسمائه ، ونجد بعضها مرتبطاً ببعض بقانون التناسب ، فما لم يعلم الخالق ما في كل جزء من الكون من مناسبة للجزء الآخر في الخصائص ، ويقدر على خلق جميع أجزائه ، وربط بعضها ببعض على وجه يؤدي إلى ما نراه فيه من نظام وإحكام ، فإنه لا يستطيع باشتراكه مع غيره التوصل إلى خلقه ، لأنه لا يعرف ما يناسبه ، ومن أجل ذلك لا يقدر على ربط ما يصنعه بغيره : فلماذا يستحيل أن يخلق هذا الملكوت العظيم آلهة عاجزون على هذا النمط المفروض .

■ أما إن فرض اختلاف هؤلاء المتعديدين ، فإن ذلك يؤدي إلى تعارضهم ، فهذا يريد أن يخلق هذا الكوكب - مثلاً - وذاك لا يريد ، وهذا يريد أن يخلق إنساناً وذاك لا يريد ، فهل تعتقد أنه من الممكن تحقيق هذا التعارض ؟ بأن يُخلَق الكوكب ولا يُخلَق ، ويُخلَق الإنسان ولا يُخلَق ، هل تعتقد أنه يمكن اجتماع التقيضين ؟ فإن قلت كلا ، قلت إذن يستحيل وجود عديد من الآلهة مختلفين ، ألا ترى أنه يترتب على اختلافهم تنازعهم في الألوهية ، ومحاربة كل منهم للآخر ، ومحاولة إفساد ما صنع ، وهل هذا

يتفق مع ما نراه من هذا النظام البديع المحكم ، كلا ، إنه ناطق بأن الذي أوجده إله واحد ، متصف بجميع الكمالات منزّه عن شوائب النقص ، وصدق الله إذ يقول « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا »

• يا صاحبي إن الذي منع الناس من الاستضاءة بأنوار المعرفة عبادتهم لشهواتهم ، وانصرافهم عن التبصر فيما حولهم من ملك الله ، ولو تأملوا في خلق أنفسهم لاهتدوا إلى سواء السبيل ، قال تعالى : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ^(١) وقال : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) ^(٢) ويقول : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) ^(٣) .

(١) الآية الكريمة من سورة الذاريات آية : ٢١
(٢) الآيات الكريمات من سورة عبس آية : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١
(٣) الآيات الكريمات من سورة المؤمنون آية : ١٢ ، ١٣ ، ١٤

الوثنية الفطرية

لو

ترك الإنسان لفطرته ولم يؤثر عليه أهل سوء ، لانصرف إلى الإيمان بالله وبصفات الكمال الواجبة له ، فهذا أعرابي كان يسوق ناقة في ليل داج ، والسماء صافية الأديم والفجاج أمامه فسيحة ، فإذا فكره الفطري يتنقل بين عظمة السماء والأرض وآياتهما ، ثم يقول بفطرته : البعرة تدل على البعير ، وأثار السير على المسير ، فأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على إله عليم ، قادر حكيم .

وهذا زيد بن عمرو بن نفيل : نظر في هذا الكون العظيم ، فاهتدى إلى خالقه ، ورفض ما عليه قومه من الوثنية ، وجعل يقول :

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجلُ الصبورُ
فلا العزى أدينُ ولا ابنتيها ولا صنمي بني غنمٍ أزورُ
ولا هبلًا أزورُ وكان ربًّا لنا في الدهر إذ حلمي صغبرُ

ويقصد زيد بن عمرو بابتني العزى صنمي اللات ومناة ، وكان هبل أعظم أصنام مشركي مكة ، وكان على صورة إنسان ، أدركته قریش وبده مكسورة ، فجعلوا له يداً من ذهب ، كما جاء في كتاب الأصنام للكلي .

وبعد ... فهذه عجالة يسيرة في التعريف بالخالق جل وعلا ، كتبتها لأولي الألباب بأسلوب سهل ميسر ، خال عما جرى عليه القدامى من العبارات الفنية المعقدة ، ومشتغل على حوار خفيف يمنع الملل ويستدعي مواصلة القراءة رجوت به أن يزداد المؤمن إيماناً ، وينقشع الريب عن أصابته ظلمة ، والله الهادي إلى سواء السبيل .